الحياة الفكرية

في عهد الشدة وعصر الاستقرار

لناير أرقم

من الشائع المتعارف ان عصر النمو الفكري والتفوق الفني والنبوغ الادبي في حياة الامم وسير الحضارات ليست هي الاوقات المتازة من الناحية الخلقية او من الوجهة السياسية ، وقد اشتدت العناية بالادب وكثر تذوق الفن ونظم الاقبال على صنوف العلم في أغلب نهضات الامم ودولها المأثورة بعد انتهاء عهد الصراع الوطني وانتصار السياسي ، وكانت تلك الحياة الفكرية الخصبة نتيجة متطورة من نتائجه وثمرة مرتقبة من ثمراته ، وأثيلا واسبارطة لم يخرجا أبدع طرائفهما الادبية وأنفس آياتهما في عصر اكتمال قوتهما السياسي وفي ريعان عزتهما القومية ، وفي عصر بركليس لما أخذت تظهر بوادر الضعف وتتشر علامات التدهور والانحلال كثر التهافت على الفن وذاع التعلق بالادب والاقبال على العلم كأنما تلبية لازمة محتومة وعلامة واضحة الدلالة على بدء نضوب القوة الفنية وفقاد الحيوية الكاملة ، وكذلك كان الحال في روما ، وذلك انها لما لانت قرتها وتثبت التقاليد وتحطم النظام وتزعزعت الاسرار وزقت الطبائع النافرة ولطفت الامزجة الجامحة ساد الفن وعم الادب وازدهر الحياة الفكرية ، وقد جاء هوميروس في العصور الاولية ليتغنى بما كان أعظم ما كان حياة شعبه في خضم العصور الوسطى ليروي لنا قصة النفس الانسانية في ثائر عصرها وشهواته وغرائزه ومثله وبحدثنا عما كان في حياة أعظم من أنانين الهزل والفكاهة والمجون والدعابة ولما أشبى عصر الا وقد ازدهر الرصافون وكثاب السير ورواة الاخبار ونظامو الشعر الغنائي ، وعصور الامن والهدوء والحياة رضية سهلة ، وكان الباعث في الاكثر من هذه الظواهر مضطرباً بماني أشد الازمات والحوادث ما بين مصدوات الحرب ومعتصراتها فكان الشعر حينما جالها الشعر من خطر الاتصال بالعالم والانغماس في قضاياه وآثاره من عصر الفوضى وفروضه الهادمة ، وكان السلام مزرقة في رونقها فلا شيء على الرفاه والاتساع والغذاء ومتنى أوب الاجراء صيد الوحوش من البر والفتح وسلبه ازدهى الارواح. وقد ولد في ذلك العصر الادبي الزاهر [illegible] وتغزل عليه

وحي حكمته وهو جالس تحت ظلال شجرة «البو» الجليلة فكانت البوذية ثمرة تلك الحياة الوادعة الحالمة الشبيهة بظلال الخيال وبخيرات الاماني والآمال ، وقد يدعونا ذلك الى ان نستخلص ان الحياة الفكرية تسمو وتزهر حيث تتمكن الحضارة وتستقر الحياة ويأمن الناس صولة الثورات وطوارىء الحدثان ويظفرون في هذا الامن الشامل بالهدوء الذهني والفراغ اللازمين لظهور بدائع الفن وطرف الادب ، وما دام الفن يحتاج الى الاتقان والتجويد والاناة واعمال الفكرة والانصراف عن الشواغل في العالم الخارجي فاحر بأيام الطمأنينة والهدوء ان تكون عصوراً ذهبية للادب والفن

ولكن اذا كانت عصور الهدوء والاستقرار صالحة للادب والفن منشطة لسير الفكر فهل أوقات الثورات الدامية والانقلابات العاصفة معوقة للادب قاضية على الفن ؟ وهل هي حقيقة تسلب رجال الفكر ونوابغ الفنون الهدوء الفكري والرزانة والاتزان وتحول بينهم وبين متعة الفراغ الكافي لنماء آيات الفن العظيمة ؟ لسنا نجد في التاريخ أدلة كثيرة تثبت ذلك وتنهض به بل قد نلتقي في التاريخ بحقائق تنقضهُ ، فان أوقات الثورات والانقلابات تستفز المشاعر وتهز النفوس هزًّا عنيفاً وتحرك أوتار القلوب وتثير دوافع البراعم وتستجيش عوامد الهمم فتقوى الخواطر وتتفتح العقول وتتحد الاحاسيس ويتبع ذلك ظهور نوع من الادب الحر القوي المفعم بالرجولة ، وكثيراً ما كانت أيام الحروب والثورات مبتدأ لجلائل المبتكرات وأنضج ثمرات العقول ، وقد كان القرن السادس عشر مثلاً من القرون الخاصة بالثورات وضروب الحروب المذهبية الدينية والمعارك السياسية الاجتماعية والمجادلات العلمية الادبية وكان في نفس الوقت عصر نهضة جمَّ جمها وفاض معينها وتناعيك بقرن يحتشد فيه من أعيان الانسانية واقطاب الفكر أمثال لوثر المصلح ورفاقيل ومشيل انجلو والشاعر اريستو والكاتب مونتين والعلامة إراسموس ومن العلماء أمثال جاليلو وكوبريكس والفيلسوف فانيني وغيرهم من أساطين الفكر وجبابرة العقول وقد انتضت في ذلك القرن فروع الحياة الفكرية جميعها ووجد كل فن معبراً عنهُ وممثلاً له وكانت ايطاليا حينذاك بخاصة من بين دول أوروبا مهزة الاوصال مصدوعة الوحدة مسرحاً للفوضى والجرائم المنكرة وأفاعيل القسوة ولكنها كانت في عين الوقت استاذة أوربا وحاملة لواء الحركة الفكرية

وقد مرت ايطاليا نهضتها الادبية البديعة في أوائل القرن التاسع عشر وهي في ظروف عصيبة وعهود عاصفة وكانت بمثابة الشعل متقدة الاجزاء مجروحة العزة القومية وقد أتم فيلسوفها الكبير هجل كتابه « ظاهرة العقل » وسيافع الجيش النابليوني تدوي في أذنيه وفتى فيلسوفها تحت نجمه وهو يذود عن وطنه ويثير حمية تلامذته وأتباعه ، وقد قويت في ذلك الوقت النهضة الفكرية في ايطاليا فنشأ مذاهب فلسفية عظيمة كان روع ما عرفت الفلسفة ومن آراء طريفة في التاريخ والنقد الى نظريات أصيلة في اللغة والعلوم ، وقد كان عجيباً ظهور تلك النهضة الرائعة في ايطاليا التي عرضها الحوادث وأصاب اليها الدهر ولكن أوقات الاضطرابات والثورات من شأنها ان تثير

القلب وتحرك رواكده وتبعث كوامنه فيظهر من النفس كل خفي ويتكشف كل كنز دفين وتتفتح أزاهير الروح الداخلية وتخرج من المبتكرات العظيمة والمنشآت الفنية الخالدة كما خرج هذا العالم الدنيوي من جوف الخواء القديم والفوضى السالفة، وكأن الحركة العامة الشاملة والاضطراب السائد والقلق المستحوذ يرمض الخواطر ويفض اغلاق النفوس فتسخو بقوتها المكنونة وتجود بثرائها الجم المدخر، ولئن كانت حياة الدعة والاستقرار تريح الفكر وتمنحه الهدوء إلا أنها تقعد وتخضعه للنظم والقوانين وتحصره في حدود العرف الشائع والرأي العام الذائع، اما في أوقات الاضطرابات فان العقول تجد مراحاً تنطلق فيه كما شاءت لها طبيعتها إذ يقل ضغط الروابط الاجتماعية وتتحطم اغلال العرف وقيود المصطلحات وغير عجيب ان تجود تلك الازمنة بكل نفس ثائرة هدامة خارجة عن القواعد المرعية في الدين والآداب والاساليب المتبعة في الفكر والمناهج المألوفة في الفن، ولقد كانت الديانة المسيحية السامية وليدة ثورة من أمثال هذه الثورات وبنت عصر من أشد عصور الاضطرابات، وكذلك نشأت الديانة الاسلامية خلال العواصف والقلاقل ولذلك جاء المتنبي والمعري في أزمنة انحلال وقد تزلزلت دوامي الحياة وتداعت اركان الحضارة

في عصور الاستقرار يسود نوع خاص من الفكر وفي عهود المشادة ينبعث نوع آخر مغاير له، فأدب عصور الاستقرار يمتاز بجودة الصناعة وحسن الصقل وبراعة الاتزان وانسجام التأليف ولكنه خال من الحيوية القوية والروح المتوثبة، وأدب عصور المشادة يمتاز بقوته وشدة اسره وعمقه وغزارته وبعيد ابتكاراته وطريف مخترعاته، وفي ازمنة الاستقرار يتصور الناس ان الفن حلية على جيد الحياة وان الادب تسلية تقطع بها ساعات الفراغ وترجى بها السأم وان العلم نوع من الرفه، أما أزمنة المشادة فيغلب على أدبها روح الجد ونزعة الجهاد البعد عن الزخارف وعدم تكلف الصنعة، وفي اوقات الاستقرار تسود افكار معتدلة لا شذوذ فيها ولا مغالاة ولكن في أيام المشادة والانفعالات تظهر الافكار الكبيرة وكأن الفرس في تلك الازمنة تخرج عن مداراتها المألوفة فتلمس شيئاً من اسرار الحياة المحجبة وغرائبها المستورة وتبصر لمحات من الابدية الخفية ويهبط عليها نوع من حكمة الوحي وقداسة الالهام ويظهر في تلك الفترة الجليل والسخيف والرائع والمضحك وتتحلى المتناقضات والخوارق والمعجزات وتمتزج بالتراب الريح الخفاقة وتواريها المتناقضة وقد ظهرت في العصر الذي ارسل فيه المتنبي حكمه الخالدة في مسمع الايام حماقات الشاعر ابن سكرة ومخرقات ابن حجاج

وعهود الاستقرار عهود الاتزان وانسجام تنفرس اعلامها هادئة مطمئنة غير مأخوذة بروعة المجهول ولا سكرى بنشوة الجهاد والمكافحة، ولتوضيح ذلك سأوازن بين شاعر يمثل عصراً من عصور الاستقرار النسبي كالبحتري وآخر يمثل عصراً من عصور المشادة والقلق مثل المتنبي، والبحتري والمتنبي شاعران متناقضان في كل شيء، البحتري رجل حضارة نهر سلس الطباع غير ناقم ولا منحط والمتنبي ثائر الطبع غير مستقر النفس، والاول يجيء في عصور الاتزان

وقد استفاضت الحضارة واسبغت ظلها . والثاني لا يقبل الى الدنيا الا في اوائل الحضارة او في نهايتها ، في ثورة التكوين او في اضطراب الانحلال ، والبحتري أتقى صياغة وأرشق معرضاً ولكن المتنبي يذهلك عن هيئات اسلوبه ويغرب فيه بقوة روحه وشدة طبعه . وقد ظهر الاول والخلافة لم تذهب بعد هيبتها ولم تصلب العواصف بقوتها فكانت شخصية الخليفة تستغرق كل الشخصيات وتميل عليها وتبسط ظلها فوقها . ولكن الثاني جاء في وقت ملكيات محدودة متعددة الاشياء والنظائر فنمت شخصيته ولم تجد قوة تصدها وتهزمها ولذا ترى الاول يقاسي شخصيته ويفنى في شخصية ممدوحه بينما المتنبي يفيض على ممدوحه من صفات نفسه وشمائلها وتنسج له جنة من خياله ، والاول كالبحيرة الهادئة تحرك عليها النسائم خفائف مياهها وتحدث بها موجات لطيفة هادئة . والثاني كالبركان الثائر يقذف بالحمم المستمرة ويصب عليه الألم الدائم والشكوى المستمرة وسوء الظن بالبشر والتقلب بين السخط الثوري عليهم والكره الشديد لهم والبحتري ناعم البال لشواغله عامر بالذات اوقاته وأحداثها نفس واسعة راضية والمتنبي نفس معذبة لا تأوي الى ظل من الامن ولا تستقر على راحة

وترى في شعر كل منهما صورة من عصره ، فالبحتري ينظر الى الاشياء القريبة المنال الدانية من الفهم ويتجنب كل ما يحسر الفكر ويكد الذهن ويراعي في شعره موازنة عجز البيت بصدره ويدخر الكلمات الرشيقة والالفاظ الطلية ليقفل بها القافية ويحاول ان يوجد توازناً ملحوظاً بين الفكرة والتعبير عنها ويقدر لذة الاذن وسعة السمع فيتخير الالفاظ الرقيقة المهذبة ويطرح الغريب الوحشي والحشو والزوائد في شعره بلاغة وبراعة وتخلله موسيقة هادئة منسجمة وأوضح صفاته التناسق والسلاسة لا الحرارة وقوة الروح وعبقريته عبقرية متزنة وليست عبقرية متقدمة جريئة كعبقرية المتنبي ، وعواطفه هادئة لا تتراءى الى الحدود البعيدة والغايات القاصية فهو يميل بالاعتدال نحو كل شيء ولوع بالزينة والتظرف واقتناء السارات السائغة المقبولة ، وهو يحيى في نفسه مشاعر ويكظم فيها اهواء ولا يرضى الوجود والحياة لكل فكرة تمر بخاطره وعاطفة تختلج نفسه وهو يقنن الافكار التي اقرها المجتمع واصطلح عليها العرف حتى لا يصطدم بمعتقد ولا يخرج معتقداً وذلك للح في استهانة المتنبي بأوضاع الناس وشذوذه عن القياس مع حرصه على [illegible] وضعه هو فرضي عصره وشعراءه ولكنك تسمع خلال شعره نبضات قلب كبير وزفرات روح طموحة لم تنل ولم تذلل وهو يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يكثر في شعره من التجمل والزخرف ولا يجري وراء المحسنات والرقائق ولا تقارنه في شعره تلك النظرة الاخلاقية الفاحصة التي امتاز بها عن سائر شعراء العربية والتي هي اساس فلسفته في الحياة وخلاصة تأمله في طبيعة البشرية ، وخلاصة القول ان البحتري مثل صادق وأنموذج تام لادب الصنعة والزخرف الذي يظهر في عصور الاستقرار كما ان المتنبي خير عنوان لادب القوة والابتكار الذي يسود في عصور الشدة والقلاقل والاضطرابات